أجراه: محمد حمزة غنايم

المؤرخ توم سيغف

«فسيفساء» من هويات وثقافات

يحتل المؤرخ الاسرائيلي توم سيغف (مواليد القدس، ١٩٤٥) مكانة محترمة في صفوف دارسي التاريخ اليهودي المعاصر، وقد اثارت كتبه الخمسة الاولى – «١٩٤٩: الاسرائيليون الاوائل»؛ «جنود الشر – قادة معسكرات الابادة»؛ «المليون السابع – الاسرائيليون والكارثة»؛ «ايام شقائق النعمان – ارض اسرائيل في فترة الانتداب»؛ «الصهيونيون الجدد» – نقاشا واسعا في اسرائيل والخارج، وترجمت الى عدة لغات عالمية. مؤخرا اختارت صحيفة «نيويورك تايمز» كتابه «ايام شقائق النعمان» (منشور بالانكليزية) واحدا من افضل عشرة كتب للعام الفين.

سيغف متخصص في دراسة الكارثة اليهودية (المليون السابع» و «جنود الشر»)، والهجرات اليهودية المختلفة الى فلسطين، قبل وابان اقامة اسرائيل («الاسرائيليون الاوائل»)، وخلافا لكثيرين من مجايليه المؤرخين اليهود وضع كتابا يدافع فيه عن الدور البريطاني في اقامة الدولة اليهودية، ويقول ان الانكليز كانوا «اناسا طيبين جاؤوا فقط للمساعدة في اقامة الكيان اليهودي».

في كتابه الجديد «الصهيونيون الجدد» توصل سيغف الى ان ظهور جماعات يهودية جديدة في السنوات التالية على اغتيال اسحاق رابين في تشرين الثاني ١٩٩٥ يسميها «صهيونية جديدة»، ليس سوى مؤشر قاطع على موت «ما بعد الصهيونية» ووقوع «انقلاب» فكري وسياسي على نهج التسوية السياسية بين الاسرائيليين والفلسطينيين، خلافا لما اشاعته اتفاقات المرحلية بين الجانبين من اجواء «ما بعد الصهيونية»، بدت للكثيرين مقدمة ضرورية لاقامة سلام مستقر في المنطقة.

يكتب سيغف زاوية اسبوعية في صحيفة «هآرتس»، ويعد شريكا كاملا في الجدل السياسي والفكري العام في اسرائيل.

جرى هذا الحوار يوم ٢٠٠١/٥/٢٣ في «بيت سوكولوف» في تل ابيب.

● مؤخرا اصدرت مجموعة من الشخصيات الثقافية والادبية العربية بيانا دعت فيه حكومة لبنان لإلغاء انعقاد مؤتمر حول الكارثة في بيروت، في موقف عربي نوراني واضح من المسألة، جمع بين

عدد كبير من الرموز المعروفة على الساحة، وبضمنها ادوارد سعيد ومحمود درويش والياس صنبر. ما رأيك بالبيان، وكيف تنظر الى هذه المسألة؟

– اعتقد ان الفلسطينيين، والعرب بشكل عام، لا يدركون مكانة الكارثة في الوعي الاسرائيلي العام. انهم، ببساطة، لا يفهمونها. وهم ميالون للكتابة عنها باعتبارها «دعاية صهيونية». يوجد اليوم اسرائيليون كثيرون مدركون لأبعاد التراجيديا الفلسطينية، اكثر مما لو كان هناك فلسطينيون مدركون لأبعاد الكارثة اليهودية. من هنا بدا لي البيان السالف الذكر مهما للغاية. هو بيان حكيم ايضا، لأن هؤلاء الاشخاص لم يكونوا راغبين بربط انفسهم بمنكري الكارثة. هناك جديد في البيان، وهو ما يجب ان نعيه جيدا، وبخاصة ان محمود درويش والياس صنبر وادوارد سعيد الذين ذكرتهم آنفاً من بين الموقعين عليه.

● دائما قادنا الحديث عن الكارثة اليهودية في زمن النازية الى المقارنة بين ما فعله بكم هتلر وما تفعلونه انتم اليوم بالفلسطينيين، الذين يحسون انفسهم ضحايا الضحية ذاتها. ماذا تقول في ذلك؟

– لا اظن ان بامكانك مقارنة الكارثة بنكبة الفلسطينيين. لا توجد قاعدة لمثل هذه المقارنة. الشبه الوحيد بين هذين الحدثين كامن في تحوّل كل واحد منهما الى مركّب مركزي للغاية في الهوية القومية: الكارثة، كمركّب مركزي للغاية في الهوية الاسرائيلية، والنكبة – بطبيعة الحال – كمركّب مهم للغاية في الهوية الفلسطينية. لكن الشبه بين الحدثين يبدأ وينتهي هنا. لا يوجد عدد كاف من الاسرائيليين ممن يفهمون النكبة، مع ذلك يوجد المزيد والمزيد من الاسرائيليين ممن يعرفون اولا شيئا عن النكبة، ويفهمون ان لاسرائيل دورا في المسؤولية عما حدث هناك. بالنسبة للكارثة، فان براعم الفهم في الجانب العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص بدأت بالظهور مؤخرا فقط. واسباب ذلك واضحة: فالجانب العربي يخشى ان اعترافه بالكارثة كأنما يجعله يفقد شيئا من مكانته كضحية. الجدل بيننا كما تعلم دائر حول «من هو الضحية؟». وهو جدل سخيف، لكننا نتجادل حول وضعية الضحية الحقيقية. بدأ هذا الجدل مباشرة بعد قيام الدولة وما زال مستمرا حتى يومنا هذا. انها المسألة العالقة بيننا – يهودا وفلسطينيين – بالاضافة الى مستقبل المناطق والقدس واللاجئين والمستوطنات. ما زلنا حتى يومنا هذا نتساءل: من هي الضحية الحقيقية؟ الفلسطينيون يخشون ان يؤدي اعترافهم بأن مأساة كبرى لحقت باليهود الى اعتراف مباشر منهم بصحة النظرية الصهيونية، وهو ما ليس صحيحا بالمرة. دولة اسرائيل لم تقم بسبب

من الصعب للغاية - عندما تنظر للاسرائيليين - المقارنة بين الكارثة المستخدمة لغايات دعائية، والكارثة المعبرة عن مشاعر حقيقية. الأمران موجودان. اذا كان قسم كبير من سكان دولة اسرائيل عشية حرب الايام الستة قد خشي الابادة، فقد اسهمت تلك المخاوف بوقوع الحرب الى حد كبير. هذه مخاوف حقيقية، وليست دعائية مضخمة. الخوف على الاقل كان حقيقيا. في فترة حرب الخليج ايضا كان لدى الناس احساس بالكارثة، لمختلف الاسباب

الكارثة، وليس نتيجة لها، بل نتيجة ثلاثين عاما من العمل الصهيوني، وهي كانت ستقوم، مع الكارثة او بدونها.

● لا احد يستطيع انكار دور الكارثة في «حل» المسألة اليهودية، وهو حل انتهى خلافا لما خططته النازية – اقامة دولة اسرائيل على انقاض الشعب الفلسطيني.

– لعبت الكارثة بين السنوات ١٩٤٥ – ١٩٤٨ دور الرافعة السياسية في الدعاية الصهيونية اساساً. بعد الكارثة، صار بإمكان الصهيونيين ان يتوجهوا الى العالم والى العالم المسيحي بالذات مطالبين بتسديد «الدّين». معروف ان حوالي مائة الف لاجىء يهودي بقوا بعد الحرب مقتلَعين من اماكنهم في اوروبا، لم يكن واضحا لأحد ماذا سيفعل بهم، وكان لا بد من ايجاد حل لمشكلتهم. بدا ذلك جزءا من المشكلة، ما سمح للحركة الصهيونية بمطالبة العالم بحل مشكلة هؤلاء اللاجئين. لكن ذلك لم يدم طويلا، فمنذ سنة ١٩٤٥ كان اساس الدولة اليهودية موجوداً في ارض الواقع: كانت هناك مدينة عبرية كبيرة اولى – تل ابيب – وكان هناك استيطان يهودي واقتصاد وتعليم وجيش يهودي، والأهم من ذلك كله – ثقافة عبرية قومية. هنا اضرت الكارثة بالحركة الصهيونية بطبيعة الحال، لأن الحركة الصهيونية كانت تحلم بجلب غالبية المواطنين الذين سيعيشون في هذه الدولة من اوروبا. لكن هؤلاء الاشخاص قُتلوا، لذلك تطلعت الحركة الصهيونية من حولها متسائلة: من اين نأتي باليهود؟ آنذاك «اكتشفوا» يهود البلاد العربية، لكنهم لم يكونوا نفس الاشخاص الذين كان من المفترض ان يعيشوا في الدولة الصهيونية، لذلك كانت الكارثة ضربة مؤلمة جدا للحركة الصهيونية.

● في كتابك «المليون السابع» تحدثت عن عجز الحركة الصهيونية عن التصدي للنازية في «الوقت الحقيقي».

– صحيح. احيانا تبدو الحركة الصهيونية بنظر الكثيرين قادرة على فعل كل شيء، ومسيطرة في العالم كله. وذلك غير صحيح، فهي عجزت عن انقاذ اليهود من المحرقة. هذه حقيقة تاريخية!

● كان ذلك متصلا في الواقع بامور عامة اكثر – بسَير الحرب العالمية الثانية، وبنتائجها ايضا، وكذلك بموقف القيادة الصهيونية هنا، في البلاد..

– كانت الطريقة الوحيدة لانقاذ يهود اوروبا تمر عبر الحاق الهزيمة بألمانيا النازية. وذلك ما لم تتمكن الصهيونية من عَمله، وكذلك الحال مع «اليشوف» اليهودي في البلاد. في كتابي المذكور اشرت ايضاً الى ان انقاذ يهود اوروبا لم يكن برأس سلَّم اولويات القيادات التي عاشت في البلاد في تلك الفترة، التي اهتمت اولا وقبل كل شيء باقامة الدولة العبرية كهدف بحدّ ذاته. وهو ما قامت به على مدار ثلاثين عاما، بمساعدة البريطانيين.

● هذه هي الفكرة الاساسية التي بنيت عليها كتابك «ايام شقائق النعمان» حديث الصدور، مع انه جوبه بنقد من اوساط اليمين ممن ساوَوا بين الانكليز والحركة الوطنية الفلسطينية في تلك السنوات المصيرية..

– هذه حقيقة: دولة اسرائيل قامت بفضل مساعدة الانكليز، وليس نتيجة الكارثة. وهو ما شرحته في كتابي بالتفصيل.

● تعرف ان «تقاليد متكاملة» في المقارنة تطورت في الفكر والثقافة العربية وليس في السياسة فقط، في ضوء ممارسات الانظمة الاسرائيلية المتغيرة تجاه الفلسطينيين اولا وتجاه العرب بشكل عام. لا يمكنك تجاهل ذلك!

– اعود مجددا الى التأكيد على استحالة المقارنة بين ابادة اليهود في الكارثة، وما فعله الاسرائيليون في نكبة الفلسطينيين. هذه مقارنة غير اخلاقية وغير صحيحة. الصحيح هو انه من الصعب للغاية – عندما تنظر للاسرائيليين – المقارنة بين الكارثة المستخدمة لغايات دعائية، والكارثة المعبرة عن مشاعر حقيقية. الأمران موجودان. اذا كان قسم كبير من سكان دولة اسرائيل عشية حرب الايام الستة قد خشي الابادة، فقد اسهمت تلك المخاوف بوقوع الحرب الى حدّ كبير. هذه مخاوف حقيقية، وليست دعائية مضخمة. الخوف على الاقل كان

حقيقيا. في فترة حرب الخليج ايضا كان لدى الناس احساس بالكارثة، لمختلف الاسباب. لكن، لو افترضنا ان مناحم بيغن قام بتوجيه رسالة للرئيس رونالد ريغان قائلا له انني اقوم الان بتحريك جيش الدفاع نحو بيروت لالقاء القبض على هتلر في استحكامه تحت الارض – قاصدا عرفات – لكانت هذه المقارنة نموذجا واضحا لاستخدام دعائي مضخم للكارثة. مرة قال ابا ايبان «ان حدود ١٩٦٧ هي حدود اوشفيتس، لذلك لا يمكننا العودة الى هذه الحدود». هناك ايضا مقارنات كثيرة بين مختلف القادة، وبين هتلر. هذه استخدامات مغرضة للكارثة. ولو قمنا اليوم باجراء استفتاء بين طلبة الثانوية الاسرائيليين، لوجدنا ان ثمانية من كل عشرة طلاب يقولون لك انهم يشعرون حقا انهم ناجون من الكارثة. لا يمكنك تجاهل ذلك. وهو ليس نتيجة تضخيم للمسألة. فالكارثة جزء من الهوية الاسرائيلية، وذلك شيء حقيقي، ولن تصبح حياتك اسهل اذا قلت انها دعاية صهيونية، وشطبت المسألة باعتبارها كذلك بنظرك. هذا جزء من الهوية الاسرائيلية، وهو امر متعاظم من يوم ليوم. في كتابي «الصهيونيون الجدد» وضعت هذا الشيء في سياق اوسع قليلا، حيث نجد ان المزيد من الاسرائيليين اليهود – لا العرب – يميلون اليوم اكثر من الماضي للتماثل اكثر فأكثر مع التاريخ اليهودي. الوزن الذي يضفونه على الكارثة يعكس هذه الحقيقة، باعتبارها احدى طرق الاسرائيليين اليهود للتماثل مع التقاليد اليهودية والتاريخ اليهودي، تماما مثلما ان يهودا من المغرب بدأوا في مرحلة معينة الاعتناء بـ «الميمونه». اذا قلت لهم: ما الذي يربطكم بها، وهي من المغرب اصلا، وانتم تعيشون في دولة اسرائيل، لأجابوك انهم يعيشون هنا لكنهم لم يفقدوا الهوية اليهودية «الاصلية». لذلك فان احد اهم المعطيات المتعلقة بالهوية الاسرائيلية الجديدة – وهو ما لم اشر اليه في الكتاب، لكنه ورد في تقرير مراقب الدولة الصادر هذه الايام – يرد من خلال الاشارة الى سفر الطلاب الاسرائيليين الى بولونيا، ويسأل (مراقب الدولة) اذا ما كان بالامكان خفض مصاريف هذه الرحلات، ملتفتا الى مسألة هامشية في سياق تاريخي كبير. المعطى الاكثر اثارة في التقرير ان اربعة عشر الف عائلة اسرائيلية اوفدت ابناءها هذا العام لبولونيا، مُغطية المصاريف كلها من جيبها الخاص (الف دولار على الاقل للطالب)! هذه ليست دعاية صهيونية. لو كانت هذه الرحلات مدعومة حكوميا لقلت انها كذلك. لكن الناس تدفع من جيوبها، فذلك مُهم بنظرها. لا يمكن تجاهل هذه الظاهرة، التي توضح ان الكارثة حقا جزء من هويتنا.

● تعرف ان العرب لا ينظرون الى ذلك بنفس العيون! وسيكون عليك ان تجتهد كثيرا في تفسير ذلك.

– ذلك يحدث بسبب النزاع بالطبع! الى حد ان الافلام التي تعالج موضوع الكارثة ممنوع عرضها في الدول العربية. الجامعات العربية لا تقوم بتدريس الكارثة..

● لا اظن المسألة بهذا الشكل، وخاصة في العقدين الاخيرين. هي مدرجة في بعض الجامعات ضمن مادة التاريخ، وهناك ذكر لها في تأريخ الصراع في المنطقة.

– ذلك هامشي، ويتم بدوافع مختلفة. عندما زار وزير خارجية مصر السابق عمرو موسى اسرائيل كادت زيارته تلغى بسبب تحفظه من زيارة مؤسسة «يد ڤشيم» لتخليد ذكر ضحايا الكارثة. هذه نظرة محدودة للامور. وذلك قصر نظر سياسي – هذا الخوف من ان «اعترافك» بالكارثة يعني الاعتراف بالصهيونية.

● لعل اعتراف الاسرائيليين بالمأساة الفلسطينية سيوصل الى مثل هذا «الانفتاح» الذي ترغب به..

– اعتقد ان السلام الحقيقي بين اسرائيل وفلسطين يتطلب حقا

١٩٤٩ – الاسرائيليون الاوائل

مثل هذه التحولات، بأن يعترف الاسرائيليون بالنكبة وما يترتب عليها. لا يكفي ان تقرأ عن ذلك كتابا. ذلك يتطلب تحوّلا ما. بنفس القدر، لن يسود السلام اذا لم يتعلم الفلسطينيون شيئا عن الكارثة، ويعرفوها. لا يمكنك صنع سلام مع عدو لا تفهمه! واذا لم تفهم دور الكارثة في الهوية الاسرائيلية فلن تفهم الاسرائيليين.

● مؤخرا (مطلع ٢٠٠١) صدر كتابك الجديد «الصهيونيون الجدد». من هم هؤلاء الصهيونيون؟ هل هم غرس جديد في المجتمع، وفي الهوية الاسرائيلية المتغيرة باستمرار؟

– الصهيونيون الجدد كما يبدون لي هم اشخاص لا يعيشون من اجل الماضي او المستقبل او هذه الايديولوجيا او تلك. انهم يعيشون من اجل الحياة نفسها. يعيشون الآن، بروح الثقافة الاميركية الى حدّ كبير. اذا شئت – الناس الذين يعيشون في تل ابيب. انهم شبان يسألون انفسهم اذا ما كان جديرا بهم الذهاب الى الجيش. وهم على فترات متقاربة يقولون انهم لا يجدر بهم القيام بذلك! وكثيرا ما يقولون انهم يلتحقون بالجيش لأن الامر «مربح بالنسبة لي». فقد اتعلم هناك صنعة، واتعرف الى الاشخاص المناسبين. انهم اناس يعرفون ان وجود دولة اسرائيل بات مضمونا. اناس يعرفون ان قصة دولة اسرائيل هي قصة نجاح، حتى لو لم يعترفوا بذلك. حتى اليوم ستجد اسرائيليين عائدين بطائرات «العال» الى البلاد يقومون بالتصفيق بعد ملامسة عجلات الطائرة الارض. هذه عادة سخيفة تماما، ما زالت موجودة لليوم. فهم يعرفون ان الطائرة لن تسقط. ولو اسست على ذلك مجازيا – فانهم يعرفون ان الدولة موجودة، على رغم الارهاب الذي يعرض للخطر عددا كبيرا جدا من الاسرائيليين. لكن وجود الدولة ليس معرضا للخطر. انهم اناس يحسون بأمن اكثر. هناك جيل ثان وثالث من الاسرائيليين اليوم نجحوا بخلق روتين اسرائيلي. يذهبون الى نفس المدرسة مثل ابائهم، ويسكنون نفس المدينة مثل ابائهم، ويتحدثون نفس اللغة ولديهم نفس المخزون الثقافي والتصاوير والرموز وروح الدعابة. هناك استمرارية لذلك. الناس يعرفون ان اولادهم يستطيعون العيش في هذه البلاد وانهم سيحصلون على حياة افضل من حياتهم. في واقع الحال – هذه هي خلاصة الحياة الطبيعية. ذلك يخلق احساسا أكبر بالامن، ما يجعل الناس أكثر نضجا. يخيل لي انهم يتحررون من الاحساس بانهم مدينون بشيء ما لايديولوجيا معينة هي بصدد تحقيق حلم ما سيأتي في المستقبل. لماذا؟ لأن هذا الحلم يحقق نفسه الى حدّ كبير، بلغة الحاضر. بعد عشرين عاما ستعيش غالبية اليهود في دولة اسرائيل. لن يظل يهود في العالم.

● هل لديك ضمانات لذلك؟

– هذا ما تقوله الاحصائيات. لان اليهود في اميركا يتزوجون من غير اليهود. يذوبون. اليهود الذين يريدون الهجرة للبلاد يفعلون ذلك الآن. وبعد عشرين عاما لن يظل هناك من سيرغب بالهجرة اليها، لان الكل سيكون قد هاجر. من يتبقى هم «الحريديم» الى حدّ كبير. لكنهم غير صهيونيين. اي ليسوا ملائمين للحكاية الصهيونية. سيصير بامكانك القول ان الحركة الصهيونية حققت حلمها الى حدّ كبير. ماذا اراد الحلم الصهيوني في حقيقة الامر؟ حياة طبيعية للشعب اليهودي. وذلك يحقق نفسه الآن. لو اجرينا هذا الحديث قبل تسعة شهور لكنت أكثر وثوقا بما اقوله لك. لكن ما يحدث خلال الشهور التسعة الاخيرة جعل هذا الوضع الذي اسميه في الكتاب «الوضع ما بعد الصهيوني» – بمعنى الوضع الناجم عن تحقيق الصهيونية لنفسها – مشروطا بأن نتوصل الى تسوية معينة مع الفلسطينيين. انقطع الوضع «ما بعد الصهيوني»، وصارت هناك علاقات متبادلة بين هذا الوضع الذي اتحدث عنه، واجواء اوسلو. لأن امرا مذهلا قد وقع. ذات يوم قالت غالبية الجمهور في دولة اسرائيل لإسحاق رابين «إذهب واصنع سلاماً مع عرفات! وأَعِد غزةَ، ونابلسَ واريحا. نحن لا نريدها». اذاً، لا بد من السؤال عما حدث هنا، في هذا المجتمع؟ ماذا حدث حتى تفكر غالبية الاسرائيليين ان السلام أمر حيوي لوجود الدولة؟ قبل سنوات قليلة فقط قال الاسرائيليون لرابين انهم لا يريدون اداء الخدمة العسكرية في غزة، التي يجب ان تعاد لعرفات. امر مذهل ان يحدث شيء من هذا القبيل.

● لعل ذلك تم بدوافع عملية وليس ايديولوجية..

– ذلك حدث لأن الايديولوجيا فقدت وزنها في الوضع «ما بعد الصهيوني». ولأن الحياة ذاتها أكثر اهمية. لم يعد الاسرائيلي يتساءل: ماذا يمكنني عمله من اجل المجتمع، بل ماذا يمكن ان اعمل من اجل نفسي؟ ولماذا عليّ ان اطارد اطفالا فلسطينيين في غزة؟ لا اريد ان اجري وراء هؤلاء الاطفال! بدت هذه الظاهرة جديدة تماما. وهي تتصل بعدد كبير من الظواهر الاخرى، التي بدا لنا مرة حدوثها في المجتمع الاسرائيلي امرا مذهلا. لكن كل ذلك مشروط بوجود تسوية معينة. لذلك فان هذا التطور نحو وضع «ما بعد صهيوني» ليس تطورا ايديولوجيا. «ما بعد الصهيونية» ليست ايديولوجيا، وانما حالة اجتماعية. هذا التطور تعزز كثيرا في سنوات الاوهام بعد اوسلو. لكننا – جريا على طريقة الاوهام – لم نعرف في حينه انها كذلك، طالما ظل الانفجار مؤجلا! كان هناك الكثير من الاسرائيليين ممن كانوا جزءا من العملية الـ «ما بعد صهيونية»، رغم انهم لم يكونوا مع اوسلو. انهم لا يؤيدون التنازل عن المناطق، لكنهم بنفس القدر يقولون – لماذا يجب ان اخدم

في المناطق، ولماذا يجب ان استثمر كل هذه الاموال في المستوطنات؟ خسارة على النقود! كل هذه الاشياء التي كانت مرة جزءا من ايديولوجيا سياسية اصبحت نوعا من «المنطق السليم» لدى السكان. مع ذلك كانت هناك احاسيس بأننا نقترب من شيء ما بواسطة اوسلو. هذه العملية تؤدي الى شيء ما، رغم كل شيء. اعتقد ان هناك دلالة كبيرة لحقيقة ان قسطا كبيرا من هذه المفاوضات اجراه محامون. اسهم ذلك كثيرا في تطور الوهم. «بيبي» نتنياهو اوفد اسحاق مولخو، وباراك اوفد جلعاد شير، وهما محاميان كما تعلم، وقد اسهم ذلك في تعزيز الوهم بأننا في الواقع «انتهينا» من الموضوع! كانت دلالة ذلك تعني ان الطرفين بصدد انجاز «الصفقة»، خاصة وانهما تحدثا بواسطة ممثلي القانون. اليوم نعرف انها لم تكن سوى اوهام!

● اسهم الاسرائيليون في بث الوهم في الجانب الفلسطيني ايضا، عندما اختاروا الحديث عن النسب المئوية من الارض في «الحل الدائم» التي ستحصل عليها السلطة الفلسطينية بموجب الاتفاقات، وكانت تلك نسبا عالية جدا. لعل الاوضاع المتغيرة بوتيرة عالية، كما كان في الثمانينيات ومطلع التسعينيات، والحديث الواسع عن «ما بعد الحداثة» و «ما بعد الصهيونية»، كل ذلك يشير الى انها عمليات لم تنضج بما فيه الكفاية لديكم. انت اليوم تتحدث بنفس السرعة عن «صهيونيين جدد»، وربما يتحدثون غدا عما بعد الصهيونيين الجدد. الا توافق على ان الجمهور الاسرائيلي لا يذوّت مثل هذه المتغيرات السريعة، ويتصرف بشكل ظاهراتي لا حقيقي تجاهها؟

– الجمهور الاسرائيلي، ومعه الجمهور العربي – الاسرائيلي، خاضع لأمزجة متقلبة للغاية. هذه ميزة بارزة لدى هذا المجتمع – أننا مزاجيون! نحن نيأس سريعا ونصدق سريعا. نعبر من النقيض الى النقيض بسرعة مذهلة. يمكنك اليوم سماع اقوال عن «طرد» العرب من البلاد. وفي الوقت نفسه الاستماع الى وزير معين يتحدث عن اعادة احتلال غزة، واخر (شلومو بنيزري – «شاس») يدعو الى «مسح» السرب الاول من بيوت بيت جالا المحاذية لـ جيلو». المثال الاوضح الآن هو رئيس الحكومة الجديد (شارون) الذي حطَّ بيننا مباشرة من سنوات الخمسين. انه لا ينتمي الى هذا الزمان، فهو اليوم لا يفكر، ولا يتحدث، بل جاءنا من مرحلة اخرى.

● تكتب في «الصهيونيون الجدد» ان انتخاب شارون، الزعيم الميثولوجي، لا يشهد على الاجواء الـ «ما بعد صهيونية» الجديدة من منتصف التسعينيات. وتعطي تفسيرا لذلك: انه انتصر لأن الناخبين قرروا معاقبة الفلسطينيين، ومعهم باراك ايضا، الذي «خيب الامال»، ولم يعرف كيف يكتفي بـ «ادارة الصراع كما يجب». كان ذلك اختبار التنفيذ كما تكتب وليس تنكّر باراك لـ «القيم القومية» كسبب للمعاقبة.

– هناك خلل بصري في انتخاب شارون. ظاهراتيا، يمكنك بناء نظرية متكاملة في ذلك، كأن تقول اننا نريد شخصا قويا، من الخمسينيات. انتخاب «بيبي» ايضا كان خطأ بصريا. عموما، نحن نُنظّر اكثر من اللازم. خذ مثلا هذه الانتفاضة الفلسطينية المتواصلة منذ ثمانية شهور. صارت لدينا نظريات كثيرة بشأنها، مع انه من المبكر استخلاص نظرية من ذلك. لكن ما يظل صحيحا هو ان الجمهور عندنا خاضع تماما للامزجة المتقلبة. وهو يتحرك بسرعة هائلة. انه مجتمع منقسم بصورة عميقة جدا حول امور اساسية للغاية. هناك امثلة كثيرة على ذلك: لن انسى تلك الليلة التي اعلنوا فيها عن التوصل الى اتفاق على توقيع اتفاقات اوسلو. تجمع حوالي ستون الف مستوطن امام مكتب رابين في القدس للاحتجاج على ذلك. في الليلة نفسها تواجد ما لا يقل عن العدد نفسه في حفل موسيقي ضخم لمايكل جاكسون، في فعالية ليست سياسية البتة. هذا هو «الانقسام». انه ليس بين يمين ويسار. بل بين اناس ما زالوا يفكرون في السياسة واناس كل عالمهم هو مايكل جاكسون. هناك اسرائيلية كهذه. هؤلاء هم الصهيونيون الجدد. هناك حالات تصبح فيها الامزجة العامة صعبة للغاية، كما حدث مثلا عند مقتل الطالبات في الباقورة (جندي اردني فتح النار على رحلة مدرسية وقتل ثماني طالبات قرب نهر الاردن). عندما حضر الملك حسين الى «بيت شيمش» اندهش الجميع: اي عربي لطيف وطيب هذا الذي جاء لمواساتهم. يوميا تتغير الامزجة العامة من النقيض الى النقيض. وهذه مشكلة، تكشفت كما قلت عبر وهم اوسلو ولاحقا عبر اوهام «الحل الدائم» لدى باراك، وقد عاقبوه لانه فشل.

- الجمهور الاسرائيلي، ومعه الجمهور العربي - الاسرائيلي، خاضع لأمزجة متقلبة للغاية. هذه ميزة بارزة لدى هذا المجتمع - أننا مزاجيون! نحن نيأس سريعا ونصدق سريعا. نعبر من النقيض الى النقيض بسرعة مذهلة. يمكنك اليوم سماع اقوال عن «طرد» العرب من البلاد. وفي الوقت نفسه الاستماع الى وزير معين يتحدث عن اعادة احتلال غزة

● مع ذلك يظل السؤال عما اذا كان الجمهور الاسرائيلي، بأمزجته المتقلبة هذه، غير ناضج للسلام مع الفلسطينيين، لذلك انتخب شارون، «العملي» في هذه المسألة؟ من يتنكر هنا للسلام – اليسار، الذي يقوم بـ «ارباك» نفسه كل الوقت، ام اليمين، الذي يصر كل الوقت على انه «غير ناضج» للسلام؟

– يهمني معالجة المشاكل والظواهر اكثر من الاشخاص. اعتقد ان المشاكل الثلاث الاساسية المعلقة اليوم بيننا وبين الفلسطينيين – المستوطنات والقدس واللاجئون – لا حل لها! ولذلك اجدني بنوع من الغرابة اوافق مع شارون! لا يوجد الان حل يمكنه ارضاء الفلسطينيين.

لا يمكن لياسر عرفات اليوم النظر بعيون ثلاثة ملايين لاجيء فلسطيني والقول لهم – انتهى النزاع مع اسرائيل. فالنزاع بالنسبة لهم ليس التاريخ الدبلوماسي. انهم ينظرون عبر النافذة ويشاهدون المجاري تتدفق تحت نوافذهم، ما يذكّرهم دائما بالنزاع. انهم يرون الحواجز الكثيرة المنتشرة في الطريق الى بيوتهم، بالمقابل يرون البيوت التي سكنها اجدادهم مرة. انهم لا يستطيعون «انهاء» النزاع. مع ذلك، كل عاقل يدرك الآن انه لا يمكن ان تأخذ هؤلاء اللاجئين وتعيدهم الى الاماكن التي عاشوا فيها.

● ما تعني بالحديث عن عدم امكان العودة – هل هو على المستوى العملي أم السياسي أم الاخلاقي أم ماذا؟

– انا لست ايديولوجيّاً او فيلسوفا، بل اتحدث اليك من الناحية العملية في الاساس. استصعب كثيرا الحديث ضمن مصطلحات الاخلاق. انا لست عادي اوفير (بروفيسور اسرائيلي مؤلف الكتاب المهم «لسان الشر») ولا جان بول سارتر! بل اقول انني لا ارى اية امكانية لأخذ اربعة ملايين لاجيء واعادتهم الى يافا وحيفا وكل الاماكن التي خرجوا منها. لذلك لا حلَّ لهذه المشكلة! لأن المطالبة بلَمّ شمل العائلات واعادة مائة الف لاجيء لا تنهي المشكلة. علاوة على ذلك، نحن نقول انه لا توجد لدينا مشكلة بخصوص المستوطنات. فقد وافق باراك على تفكيك مستوطنات تجعل ما يقارب الخمسين الف مستوطن يغادرون بيوتهم وينتقلون الى اماكن اخرى. لكن ذلك لا يكفي، ولا يحل المشكلة. باراك لم يستطع ان يعرض أكثر من ذلك في هذه المرحلة، لأنه لا يملك اغلبية. الناس لا يريدون! تماما مثلما ان اللاجئين غير مستعدين للتنازل عن بيوتهم، لا توجد في اسرائيل اغلبية يمكنها التسبب بتفكيك جميع المستوطنات. المشكلة الثالثة التي لا حل لها هي القدس. باراك هو رئيس الحكومة الاول في اسرائيل الذي جرؤ على الحديث عن تقسيم القدس. وقد حطم «تابو» مقدساً في موضوع القدس، بما يستحيل اعادة بنائه من جديد. منذ ايام باراك اصبح الجدل في تقسيم القدس مشروعا لدى الاسرائيليين. لكن الجدل لا يكفي. ولم يكن لديه ما يكفي ليعرضه على الفلسطينيين..

● لعله اراد فورا البدء «من الآخر»، مقدما موقفه النهائي لمعرفة ما يفكر به الفلسطينيون؟ وضع جميع القضايا الكأداء على الطاولة منذ اللحظة الاولى لمفاوضات كامب ديفيد، كأن غايته كانت التسبب بالانفجار. وهو ما حصل عليه لاحقا كما نعلم!

– لا اعتقد ان باراك فجّر المفاوضات عامدا. مع ذلك فهو متسلط – نابليون. اقنع نفسه بانه سيكون الشخص الذي سيجلب السلام.

المليون السابع: الإسرائيليون والكارثة.

وقد كان ذلك خطأ كبيرا. قالوا له ذلك – ان لا اساس في عهدنا لسلام حقيقي بين الشعبين. لا يمكن حل هذا الصراع في زماننا. حتى شمعون بيريس نصحه بعدم الذهاب الى اتفاق سلام نهائي، لان فكرة اوسلو العبقرية تقوم على المزيد والمزيد من الوقت. اوسلو هي معادلة الوقت. وقد رفض باراك فهم ذلك، لانه لم يكن في صالحه. كان راغبا بأن يذكره التاريخ كصانع سلام مع الفلسطينيين. هكذا افهم خطواته في كامب ديفيد. شخصيا، اعتقد ان هذه المشاكل لن تحل في زماننا! يمكن «ادارتها» في احسن الاحوال، لا حلها. يمكن «ادارة الصراع»، لا تفكيكه، وقد فشل باراك في ذلك. كان واثقا بنفسه الى حد انه طوّر في نفسه «جنون العظمة»، الذي جعله غير قادر على الاعتراف بوجود مشاكل لا يمكن حلها، لانه غير سياسي. مثل هذه القضايا تتطلب سياسيا يقرأ ويفهم التاريخ ويعرف الصراع. شمعون بيريس بعد خمسين عاما من معرفة الصراع لم يجرؤ على «حل دائم» لانه يعرف انه لا يمكن حل هذا الصراع، بل ادارته. وقد رفض باراك ذلك، وفضل الرهان على كل الصندوق، بل اراد في الواقع فرض سلام على عرفات لم يتمكن من القبول به. الدعاية الاسرائيلية حاولت ان تقول العكس – «اعطيناكم، اقترحنا عليكم، وانتم رفضتم»!

● .. ذلك يشبه زعما اسرائيليا آخر يتردد الى يومنا هذا باستمرار، انه لو وافق العرب في سنة ١٩٤٧ على حدود التقسيم لكانت الاوضاع

أفضل بالنسبة لهم!

– لعلنا نسأل مرة: لماذا رفضوا؟ السبب انهم لم يستطيعوا قبول حدود لم يتمكنوا من الموافقة عليها في ذلك العام. انها اسوأ من حدود ١٩٣٧ التي لم يحصلوا عليها، لذلك لا معنى للقول الآن – «لو انكم وافقتم على صنع السلام مع عرفات..». لو فعلتَ ذلك لما كنت عرفات! عرفات لا يمكنه صنع السلام مع الاسرائيليين بموجب هذه الشروط. اذن، لماذا تطالبونه بذلك؟ هذا هو الخطأ الكبير الاول الذي ارتكبه باراك. اما الخطأ الثاني فهو خطأ الجمهور الاسرائيلي كله، وبضمنه اليسار الصهيوني: اننا تجاهلنا حقيقة وجود عدد كبير من الفلسطينيين الذين لم يستفيدوا شيئا من عملية اوسلو. لم تتحسن حياتهم، وفي حالات كثيرة صارت اصعب. هناك هوة كبيرة بين الفئة السلطوية الصغيرة التي استفادت كثيرا من العملية، وبين بقية الفلسطينيين، وهو ما يفسر السهولة التي خرجت فيها هذه الفئة للتظاهر ضد اسرائيل وضد السلام، بعد ان انفجر كل شيء.

● ارتسمت اوسلو في مراحلها الاولى الطويلة على انها حلم وردي بنظر عدد كبير من الفلسطينيين هنا..

– .. لكن، ليس بنظر ما يكفي من الفلسطينيين. دائما قال اليسار عندنا: نحن لا نتدخل بشؤون الفلسطينيين. وهو موقف سلبي بنظري. فقد كان يجب علينا التدخل، والاهتمام بان يكبر عدد الفلسطينيين الشركاء في حلقة السلام هذه.

● قد يكون ذلك صحيحا في الاتجاه المعاكس ايضا..

– اوافق معك على اننا خسرنا على الصعيد الافتراضي.. لكننا خسرنا ايضا على الاصعدة العملية. كان علينا مثلا التدخل في قسمة الموارد المحولة من الدول المانحة للسلطة الفلسطينية..

● ألا يعكس ذلك نوعا من الغرور الفظ، ان تتدخل بشؤون الآخرين؟

– عرفت انك ستقول ذلك! اعتقد ان مصلحتنا اقتضت ان نتخذ موقفنا الذي كنا عليه، في التعامل مع عرفات نفسه. تركنا كل شيء له، وقد عمل ذلك ضد مصالحنا، بحيث حصلنا على وضع يشعر فيه هذا العدد الكبير من الفلسطينيين بالضيق! مصلحتنا ان يكون وضع الفلسطينيين جيدا، بل اكثر من ذلك: مصلحتنا ان تكون للفلسطينيين دولة، ليس كنتيجة لعملية السلام، بل كخطوة اولى في هذه العملية. لكي يتوصل الفلسطينيون الى وضع يكونون فيه «صهيونيين جداً»، لا بد لهم من ثلاثين الى اربعين عاما من الاستقلال، والتجربة القومية، والمؤسسات القومية واجيال ثانية وثالثة ترتكب اخطاءها القومية ورابعة تفتح كل شيء من جديد، وتسأل: ما هو الاهم: الحياة نفسها، ام حلم اجداد اجدادي بالعودة الى عكا. في هذه المرحلة لم يصل الفلسطينيون الى ذرة من هذه التجربة القومية المستقلة. من هنا فان اوهام اوسلو نجمت ايضا عن كونها لم تتواصل مدة اطول. اريد ان يكون لدى اوسلو المزيد من الوقت، والا يفرضوا على الفلسطينيين «اتفاقا نهائيا»، والا يقال لهم لن تحصلوا على دولة الا في اطار السلام، والا يطالبوا بالاعلان عن نهاية الصراع! لماذا؟ الصراع لم ينته. لديك دولة، وستظل لديك ادعاءات بخصوص القدس وعكا وحيفا.. وغيرها. الصراع بالنسبة لنا غير منته، وحتى ينتهي لا بد ان يبدأ الفلسطينيون العيش. كلما مر الوقت، وكلما تدهورت الاوضاع، كلما اتضح حجم الخطأ. انظر من يرمينا بالحجارة اليوم؟ انهم الاولاد الذين كانوا في رياض الاطفال والابتدائية عندما وقعوا اوسلو! لذلك مصلحتي تقضي بان يحصل الفلسطينيون على استقلال حقيقي، بقدر الامكان. مصلحتي الاسرائيلية الشخصية تقضي مثلا بتفكيك مستوطنات من جانب واحد. لماذا لا نفكك من دون اتفاق مستوطنات من ذلك النوع الذي كنا سنخليه في اطار اتفاق؟

● بعض الساسة الاسرائيليين يراها ورقة مساومة؟

– قد افقد هذه الورقة، لكن ماذا افعل بهذه المستوطنات الصغيرة المعزولة، التي لا توجد اية مصلحة للمشروع الصهيوني او الحلم الصهيوني بوجودها. باعتقادي ان ما وافق باراك على تفكيكه في نطاق اتفاق، يمكن تفكيكه بدونه ايضا. ذلك سيحسن الوضع العام، وهو ما يمكن ان يتم في نطاق ما اسميه «ادارة الصراع»، لا حله.

● تقول انه من الاجدر لك ادارة صراع على انهائه؟

– هذه ليست مسألة ربح، بل هي صيغة عملية اكثر. احساسي اليوم اننا بحاجة الى وقت طويل جدا حتى نخلق قاعدة مشتركة يمكننا التوصل لاتفاق فوقها.

● ألا يخفي ذلك وراءه نوعا من المخاوف السحيقة تجاه الثمن المطلوب منكم للسلام مع الفلسطينيين؟

– ليس بالضرورة. لا توجد عندي مخاوف من السلام. اعتقد ان ما يجري الآن من مجابهات يسد الطريق على العملية التي اسهبت في وصفها في كتابي «الصهيونيون الجدد». مرة كتبت ان هذه الانتفاضة تفرض الصهيونية علينا، ولعلها، بطريقة المضحك المبكي، انتقام الفلسطينيين منا! انكم تنتقمون منا بأنكم تفرضون علينا الاشياء التي نجحنا بالتحرر منها، وها نحن نعود مجددا للحديث بصفة الجماعة الواحدة («نحن») ونتحدث عن الخوف من رمينا في البحر ..الخ!!

انظر من يرمينا بالحجارة اليوم؟ انهم الاولاد الذين كانوا في رياض الاطفال والابتدائية عندما وقعوا اوسلو! لذلك مصلحتي تقضي بان يحصل الفلسطينيون على استقلال حقيقي، بقدر الامكان. مصلحتي الاسرائيلية الشخصية تقضي مثلا بتفكيك مستوطنات من جانب واحد. لماذا لا نفكك من دون اتفاق مستوطنات من ذلك النوع الذي كنا سنخليه في اطار اتفاق؟

وبعيدا عن الفكاهة المرة، اقول لك بشكل عملي اننا امام أمرين، الاول انه يمكن ادارة هذا الصراع لفترة طويلة جدا قبل ان يصير بالامكان حلّه، والثاني ان هناك هوة عميقة جدا بين المجتمعين الفلسطيني والاسرائيلي، تبدو لي من خلال قدرة المجتمع الاسرائيلي على التخلي عن جزء من حلمه القومي بينما لا يزال المجتمع الفلسطيني يستصعب القيام بذلك. قبل ان نتخلى عن جزء من الحلم لن نصل الى السلام. القومية الفلسطينية تبدو لي الآن مثل القومية الاسرائيلية قبل سنوات بعيدة. اشاهد حنان عشراوي في التلفزيون فاتخيلني استمع الى غولده مئير تتحدث من حنجرتها. وانا لا اقول ذلك باعتباره اطراء. هذه هي المشكلة كما اراها الآن.

● هناك اسرائيليون كثيرون يعتقدون ان «الوضع الاسرائيلي المعقد» ناجم عن عجز الصهيونية عن حسم وجهتها. هل تتحول الى «جالية يهودية كبيرة جدا في الشرق الاوسط» والعالم، ام تصبح جزءا من هذا الشرق المتوسط، مع كل ما يعنيه ذلك من دمج؟

– الحركة الصهيونية لم ترغب بأن تكون جزءا من الشرق الاوسط. هي مولودة في اوروبا، وكان حلمها اوروبيا، لذلك كما اسلفت فان الكارثة مأساة كبيرة من ناحية الايديولوجيا الصهيونية ايضا، فقد حالت دون تحول دولة اسرائيل الى دولة اوروبية كما حلمت. في غضون ذلك وقعت عدة امور، ولم تصبح دولة اسرائيل دولة اوروبية، بل دولة مندمجة بصورة لا بأس بها في دائرة الثقافة الاميركية، بصورة متزايدة من يوم ليوم، وهي تستورد من هناك قيمها. هي دولة شرق اوسطية، في شرق لم يعد كما كان. فالشرق الاوسط يتغير باتجاه اميركي..

● من تقصد بالشرق الاوسط؟ ليبيا ام العربية السعودية؟

– هناك عدد كبير من البلدان في حوض البحر المتوسط. وسيكون شيئا اسطوريا ان تندمج اسرائيل حقا في هذا الشرق المتوسطي. هذا يذكرني بالادعاء الذي يردده اسرائيليون كثيرون بان العرب يملكون ٢٣ دولة فلماذا هم بحاجة الى دولة اضافية؟ اقول لك: لا توجد لدى العرب سوى دولتين، مصر والعربية السعودية.

● «اندماج» اسرائيل في هذا المدى اشبه بهبوط سفينة فضاء في صحراء مجازية!

– مع ذلك، لا يمكن تجاهل هذه الحقيقة في الحلم الصهيوني. هرتسل لم يفكر ابدا ان دولته ستتحدث العبرية، بل الالمانية او الفرنسية، او بعدة لغات كما في سويسرا. وبنظرة للوراء سنجد ان ما حدث هو اننا حصلنا على يهود من كل العالم، بل على غير يهود بالمرة في الهجرة الروسية المتأخرة. وفي ذلك فإن المجتمع الاسرائيلي ينحو في اتجاه التعددية، والانفتاح، والتنويع. يتبلور لدينا مجتمع متعدد الثقافات، يهمني كثيرا ان يندمج عرب اسرائيل فيه. كلما تعززت التعددية الثقافية في المجتمع، كلما سهلت الامور. وبقدر ما يتبدد التوتر الايديولوجي الصهيوني، تسهل عملية دمج عرب اسرائيل في داخل هذا المجتمع.

● تعددية ثقافية ودمج؟

– هذا شكل ممتاز لحياة مشتركة. هذا هو الحلم الاميركي اليوم. ونحن نحاكيه باستمرار.

● لكنك تتحدث عن الانفصال بالتميز عن البيئة المحيطة. عندها ستصير اسرائيل ٢٠٢٠ مثلا «جزيرة يهودية» في محيط عربي.

– اتحدث عن الانفصال عن الفلسطينيين. اما المحيط العربي، فما الذي يجمع بين شعوبه سوى الدين؟

● هناك اشياء كثيرة، كالتاريخ المشترك، والتراث المشترك، واللغة..

– بخصوص اللغة فذلك ليس صحيحا. اذا تحدثت الى بدو النقب بلهجة اهل المثلث فلن يفهموك.

● ذلك ليس دقيقا، وبالماكرو – الجميع يتحدثون العربية.

– يتحدثون لغات عربية كثيرة. هناك فوارق كثيرة بين شعوب العرب. يبدو انك تعيش اسطورة الافق العربي الكبير، لكن الامر ليس

كذلك. هناك فوارق كثيرة جدا داخل العالم العربي. الناس في بيروت لا يشبهون الناس في صعيد اسوان. هناك فوارق كثيرة.

● ما المشترك بين يهودي من بروكلين واخر اثيوبي هنا او هناك؟

– التراث التاريخي في الاساس. لكنها صلة ضعيفة للغاية. انت لا تأخذ هنا شيئا مطلقا غريبا وتضعه داخل بيئة مطلقة معينة. اسرائيل هي «فسيفساء» هويات، موجودة داخل «فسيفساء» من هويات محيطة. محيطنا ليس مطلقا. وبشكل اكثر حدة: لا يوجد الكثير مما يجمع الفلسطيني الجالس في رام الله بذاك الشخص الجالس في خيمة ما في مصر. لديه اشياء مشتركة كثيرة، لكنها ليست مطلقة. هذه اسطورة. لست خبيرا بالعالم العربي، لكنني اعتقد انني افهم المجتمع الاسرائيلي، وهو على الاقل ليس مطلقا من حيث هويته، بل «فسيفساء»، متعدد الثقافات، وهذه من الاشياء الجميلة في هذا المجتمع. ذلك يشبه نيويورك قليلا. اذا سرت في نيويورك، او ركبت قطار الانفاق، لوجدت ان لا احد يشبه الثاني. الاميركان عرفوا كيف يرعون قيمة التعددية الثقافية، الى حد العبث احيانا. المجتمع اليهودي في اسرائيل يتحرر الآن فقط من ذلك الشيء الفظيع الذي اسموه في الخمسينيات «فرن الصهر»، الذي استهدف جعل الجميع نفس الشيء. لقد فشل ذلك المشروع تماما. هناك هويات مختلفة داخل الجهة الواحدة.. «فسيفساء»، حقيقية تماما.

● سأعود قليلا الى «ورطة الصهيونية» بجديدها وقديمها. مؤخرا كتب يحيعام فايتس – (مؤرخ من جامعة حيفا، وحفيد يوسيف فايتس، من اسهم في طرد العرب سنة ٤٨، وابن رعنان فايتس رئيس الوكالة اليهودية سابقا، الذي ايد بحماس قيام دولة فلسطينية، خلافا لابيه) – مقالا حول كتابك «الصهيونيون الجدد»، وجد فيه ان ضرورة حسم وجهة الصهيونية ادخلتها في ورطة التناقض بين النظرية الصهيونية الاولى، الاصلية، والمعروفة – الدعاية الصهيونية الحقيقية والكاذبة التي كبر الاسرائيليون معها – وبين صهيونية «المؤرخين الجدد». ماذا حدث حقا لكي يصير هذا الصدام الآن ممكنا اكثر من اي وقت مضى، ولكي تُحسم معركة ثقافية اخرى لصالح اليمين، رغم اجواء «ما بعد الحداثة» و«ما بعد الصهيونية» المتفاعلة في البلاد منذ عقدين تقريبا؟

– «المؤرخون الجدد» ليسوا ظاهرة ايديولوجية في الاساس. لا بد من فهم ذلك. يخيل لي انك تفكر بالايديولوجيات اكثر مني. انا لا افكر مثلك. هذه قصة ليست ايديولوجية، بل نجمت عن حقيقة معينة، هي وجود سياسة ليبرالية للغاية في فتح الارشيفات القومية امام الباحثين. لا يوجد شيء كهذا في الدول العربية، ولا في جميع بلدان اوروبا. بعد ثلاثين عاما يمكنك ان تذهب الى الارشيف لرؤية معظم المواد التي تنتجها هذه الوزارة أو تلك، وهي تخص واقعنا السياسي الى حدّ كبير. لذلك حتى لو لم تتوصل الى الوثائق السرية الامنية، يظل لديك ارشيف مكتب رئيس الحكومة، ووزارة الخارجية. قراءة في هذه الوثائق تدلك على ان تاريخنا اقل جمالا بكثير، واقل اسطورية ونبلا مما دلتنا الميثولوجيا عليه. يمكن القول انه لم يكن لدينا تاريخ قبل فتح هذه الوثائق. بل كان عندنا ايديولوجيا، وميثولوجيا والكثير الكثير من المُثل المقولبة. كتابي «الاسرائيليون الاوائل» يعد الكتاب الاول المعتمد على هذه الوثائق.

● هناك من يعدك بسببه واحدا من «المؤرخين الجدد»، رغم انك تتوصل الى استنتاجات معكوسة لاستنتاجاتهم..

– لكنهم مع ذلك لم يتوصلوا الى استنتاج واحد موحد. هذه ليست مجموعة ايديولوجية مطلقة. انها مجموعة تحاول استيضاح قصة حياتنا، وما هي سيرتنا الذاتية في البلاد. قراءة في هذه الوثائق تدلك على انه كان هناك منذ بدايات الصراع رئيس سوري – حسني الزعيم – اهتم كثيرا بلقاء بن غوريون، لكن هذا الاخير رفض لقاءه. ذلك مهم لانك تكتشف الى أي حدّ كذبوا عليك. قراءة في هذه الوثائق ايضا تدلك على وجود مناقشات لمسألة الترانسفير. لم يقتصر الامر على مهووس يدعى «غاندي» (رحبعام زئيفي) بل كانت تلك فكرة مركزية للغاية داخل الحركة الصهيونية. تكتشف ان الدعاية في حينه قالت عكس ما كان يجري بالفعل في ارض الواقع. كذبوا على الناس. كانت اسرائيل دولة جديدة برئيس حكومة غير ديموقراطي على شاكلة بن غوريون، الذي كان شخصاً توتاليتاريا بميوله، مثل قادة جميع الثورات. حاولوا تجنيدك لمتطلبات اعتقد القادة انها المتطلبات القومية لهذا المجتمع.

● هل الامر «فني» بهذه البساطة التي تصورها – اغلاق وفتح؟

– هذه ببساطة مسألة معلومات متجددة، توصل اليها «المؤرخون الجدد». عندما استكملت هذه المهمة بنجاح نسبي، ذوت الظاهرة. بعد «المؤرخين الجدد» اضطرت ليمور لڤنات (وزيرة التربية والتعليم في حكومة شارون) الى الغاء كتاب دراسي في مادة التاريخ. كل ذلك متصل بالمتغيرات في المجتمع الاسرائيلي. الملفات تنفتح كل الوقت، وانت ترى باستمرار كيف ان التاريخ الصهيوني تسبب بقدر كبير من المعاناة ليس للعرب فقط بل لليهود ايضا. هذا جزء من الاكراه الصهيوني ان نجدهم يفرضون على الناس القيام باعمال معينة. طالبوا الناس بأن يتغيروا. وقد اوردت عددا من القصص في كتابي «الاسرائيليون

الاوائل» عن الاولاد اليمنيين، الذين طولبوا بقص سوالفهم. حركة «مياي» التاريخية وقفت وراء ذلك كله. ولم يكن ذلك مقصورا على اولاد اليمن. فأنا شخصيا جاء والداي من المانيا، ولم تكن امي تعرف العبرية. وما زلت اتذكر الى اليوم كيف كانت مخاوفي تشتد كلما نشأت الحاجة لحضور امي الى المدرسة كلما جابهت مشكلة معينة، لانني كنت اخجل بعدم معرفتها العبرية. هذا ما كان انذاك، في البدايات. اما اليوم فقد تغيرنا. وساعطيك قصة اخرى. تبنيت فتى اثيوبيا اصبح في العشرين اليوم. وقد حدث ان توجه اليّ مرة بطلب مرافقته للتحدث مع معلميه في المدرسة، لانه بلا اب. كان هذا الفتى يتعلم في «كفار حسيديم»، مدرسة الشباب المتدين، وقد اصر على اصطحابي الى امه في كريات آتا، ونقلها معي بالسيارة مباشرة لمحادثة اساتذته. حضرت امه بزيها الاثيوبي التقليدي، دون ان تعرف كلمة واحدة بالعبرية. وقد قلت لنفسي: انظر ماذا تغير، هذا الولد لا يخجل بأي شيء، له اب «الماني» وام اثيوبية. حصل شيء ما في هذا المجتمع. فقد صرنا نسمح للناس بأن يكونوا مختلفين. لم نعد نفرض عليهم بنفس الحدة هذه الميثولوجيا الصهيونية. هم اكثر حرية وانفتاحا منا. يخيل لي ان مراجعة لسنيّ الدولة، تظهر الى اي مدى صرنا اكثر حرية وتعددية، واقل تسلطا. لم تعد الدولة تطالب الناس بأن يكونوا ما هم ليسوا عليه، في كل مجالات الحياة.

● توجهات وزيرة التربية والتعليم ليمور لڤنات تقول العكس اليوم.

– هذا صحيح، لكن وزيرة تعليم تأتي واخرى تروح، ولا بد لك من النظر الى توجه شامل يعود الى اكثر من خمسين عاما. لا اقول انه لم تحدث تراجعات، ووزيرة التعليم الحالية تعيدنا الى فترة سيئة، فهي سيئة لموضوع التربية، وتدعي انها «ملكة الصهيونية» وباستطاعتها اخراج كتاب دراسي غير صهيوني من المنهاج، ولكن: كم من الوقت ستظل وزيرة للتعليم؟ هناك تحولات كبرى في التربية والمجتمع، والمؤرخون الجدد جزء منها، مستفيدين من حرية الصحافة الاوسع اليوم، ومن التعددية فيها وفي البحث. امر مشروع ان نجد مؤرخا يقول: ايتها الدولة العزيزة، لقد فكرتِ ان الامور هكذا، لكنها ليست كما تفكرين.

● هل توافق على ان التاريخ الجديد هو الاتجاه المستقبلي الجديد للبحث الاكاديمي التاريخي في اسرائيل؟

– بالتأكيد. لو سألت نفسك: متى بدأ المؤرخون الجدد، لوجدت انهم كانوا «جددا» قبل خمسة عشر عاما. انهم لم يعودوا جددا الآن. ما كان مرة تاريخا جديدا، واعتبر تجديدا كبيرا، صار اليوم نموذجا في الدراسة والبحث. قد يأتي مؤرخ جديد اليوم ويبدأ حسابا مع هؤلاء المؤرخين الجدد من منتصف الثمانينيات مظهرا كيف انهم لم يكونوا محقين في استنتاجاتهم. مر وقت طويل منذ ذلك الحين، وتغيرت الدنيا!

● كيف تقيم رد فعل المؤرخين الفلسطينيين «الجدد» على مادة بحث نظرائهم الاسرائيليين؟

– لا يوجد الكثير من المؤرخين الفلسطينيين الجدد. هناك قلة تكتب بالانكليزية، لكنني لا اعرف انتاجها بما يكفي لكي اقيمه. مما اقرأه انطبع بانه لم تنشأ بعد في صفوف الفلسطينيين تلك الظاهرة التي تنتقد اسس الوجود القومي للحركة الوطنية الفلسطينية. هناك نقد معين لقادة ١٩٤٨ على سبيل المثال. دائما كانت هناك انتقادات كهذه. لكن المؤرخين الجدد بالمفهوم الاسرائيلي، لا نكاد نعثر عليهم في العالم العربي. ذلك غير ممكن، لانك بحاجة الى خمسين عاما على الاقل من الوجود القومي والامن والحرية وحتى النضج، كي تبدأ فحص حاضرك وماضيك والمجادلة بشأنه. كما نفعل نحن. جميع المؤرخين الجدد من الفسطينيين يعيشون في اميركا او انكلترا او فرنسا. اريد ان اقرأ المؤرخ ابن رام الله يكتب شيئا بهذه الروح النقدية. انه لا يستطيع، لانكم ما زلتم في المراحل الاولى.

● هناك مراحل لا يمكن منعها. بالنسبة للشعب الفلسطيني، فهو يعيش مرحلة بناء الامة، ولا يمكن مطالبته بذلك الآن.

– هذا هو الفارق الجوهري بالضبط بين الظاهرتين، عندنا وعندكم، بين التطور الثقافي التاريخي لمجتمع يملك الاستقلال ومجتمع ما زال ينقصه مثل هذا الاستقلال. ليس صحيحا ان المؤرخين الفلسطينيين لا يعرفون ما يجري في التأريخ الاسرائيلي. بل ان هناك نوعا من التعاون. بيني موريس يكتب باستمرار في مجلة «جورنال اوف بالستاين ستديز»، والياس صنبر يكثر من اقتباس جميع المؤرخين الاسرائيليين، ورشيد خالدي يقرأ جريدة «هآرتس» (بطبعتها الانكليزية) كل صباح، ويعرف بالضبط ماذا يكتبون وماذا يقولون وما يجري في اسرائيل. من مكانه في شيكاغو يطالع بالانترنت صحيفة النخبة الاسرائيلية. وقد قال لي مرة شيئا مهما – لماذا يبدو اليسار الاسرائيلي مذهولا مما يجري الآن؟ كل شيء كان مكتوبا في صحيفة «هارتس»، وانا الموجود في شيكاغو اعرفه. إما انكم لم تقرأوا ما كتبت صحفكم، واما انكم لم تفهموه! هناك ظاهرة عكسية سلبية بنظري، هي ان المؤرخين الاسرائيليين لا يعرفون لا الوثائق العربية ولا الابحاث العربية..

● لا توجد ارشيفات عربية مفتوحة امام الدارسين، ومن يرغب بمراجعة تاريخ الصراع يبتعد كثيرا الى ارشيفات العواصم الغربية..

– هذا صحيح، لكن هناك سبب اكثر اثارة للخجل، وهو ان غالبية المؤرخين الاسرائيليين لا تعرف العربية. عندما كتبت «ايام شقائق النعمان» كنت بحاجة لمساعدة طالب جامعي عربي (هو حسين حمزة)، كان يعد رسالة الدكتوراه في الجامعة عن محمود درويش، ليقرأ لي يوميات السكاكيني بالعربية.

● كيف تنظر الى تعمق نهج اهتمام المؤرخين الاسرائيليين بالحاضر المتقلب، كما يحدث عندكم اليوم؟ من هو المؤهل بنظركم لكتابة تاريخ هذا المكان؟ هل يمكن للمؤرخ المنتمي الى الجانب المنتصر ان يكون مؤرخا جيدا؟

– هناك عدد كبير من المؤرخين ممن يعتقدون ان الاهتمام بما حدث قبل عشرين او اربعين عاما لا يصنع مؤرخا. لم يعد مقبولا اليوم ما كان مرة، والمقاييس الآن لم تعد تشترط البعد الزمني عن الحدث لتكتب عنه، بل حجم المادة التي تملكها، وليس زمن وقوعها. كل من يرغب يمكنه كتابة التاريخ. لا يوجد تاريخ واحد، او حكاية واحدة. نحن بحاجة لأن نكتب وندرس التاريخ كل الوقت، لأننا نريد ان نفهم انفسنا في السياق التاريخي، ذلك يسهّل عملية مراقبة ونقد الذات باستمرار. هناك شبه كبير بين التاريخ والصحافة، احس انهما مكملان لبعضهما عندي. المنتصرون يستطيعون كتابة تاريخ المنتصرين، والخاسرون يستطيعون كتابة تاريخ الخاسرين، لكن يجب عليك ان تقول ما حدث، ولا حاجة للزعم بأن ما تكتبه هو كل الحقيقة التاريخية. دع قارئك يعرف سلفا انه تاريخ المنتصرين، وان الصهيونية انتصرت حاليا، وان التاريخ الذي تكتبه هو تاريخ كما يراه المنتصر. السؤال هو الى اي مدى يستطيع المنتصر ابقاء هذه الصفة وراءه، لكي يكتب التاريخ كما كان. ذلك صحيح بالنسبة للخاسر. لا يجب عليه ان يكتب عن بكاء الخاسرين. يمكنك ان تجتهد في دراسة التاريخ، دون ان يضيرك انك تقف امام اكثر من حكاية للموضوع.

● هناك انطباع بأن التاريخ مسألة تخص المنتصرين.

– ليس على الدوام. معظم ما كتب عن تاريخ الكارثة لم يكتبه المان بل يهود. ومؤكد انه ليس تاريخ منتصرين. كذلك الحال مع المؤرخين الجدد الذين يكتبون التاريخ اليوم، فهم لا يفعلون ذلك بهيئة المنتصرين. انهم اسرائيليون، ولكنهم يتعمقون في دراسة الاحداث. وهناك مؤرخون عرب يفعلون نفس الشيء، وقد قرأت مؤخرا لأحدهم كتابا نقديا عن دور القادة العرب في حرب ٤٨. فهل كان هذا المؤرخ يكتب تاريخ منتصرين ام خاسرين؟ المسألة هي انه لا توجد حقيقة واحدة، سواء أكانت حقيقة المنتصرين أم الخاسرين. انها فقط حقيقة الكاتب المؤرخ كما تبدو له الاشياء في ختام ما بذله من جهد ثقافي كبير لكي يروي الحكاية كما يفهمها. وفي ذلك لا تهمني المنظومة الاصطلاحية التي يعتمدها كاتب المادة التاريخية. لا يجب ان تكون اللغة رسالتنا الايديولوجية فيما نكتب. بعد صدور كتابي «شقائق النعمان» احتج عدد من الاصدقاء في اليسار الراديكالي كما تسميه على استخدام مصطلح «ارض اسرائيل»..

● هناك اكثر من اصطلاح اشكالي بالنسبة للقارىء العربي في مادتك التاريخية. هناك «القادمون الجدد» و «اللقانت» («سُبات شرقي») وغيرها. في احيان كثيرة احس انني امام كتابة استشراقية لا تتوقف عند حدود الاختلاف على الحكاية، بل ترويها بادوات مستوردة.

– «اللقانت» ليس أمرا سيئا بالضرورة..

● ذلك يتفق لديك مع «الحلم الصهيوني»، في كتاباتك عن تاريخ الاتراك وما قبل الانتداب. حتى انك تكتب عن «الطليعيين الاوائل» الذين قدموا الى «صحراء الشرق».. الا تعتبر ذلك جزءا من الرواية الصهيونية للصراع؟

– لا توجد عندي مشكلة مع ذلك. انا لا اؤيد اضفاء هذا القدر الكبير من الايديولوجيا على الكلمات. لنفكر بالمضمون اولا. لا حاجة للغة ايديولوجية في كتابة التاريخ. لذلك لا اعير المصطلح حساسية خاصة.

● ذلك يعكس مفاهيمك التاريخية، وبالتالي يحدد رسالتك واستنتاجاتك..

– بالطبع، وهذا هو الاهم. لكن استخدام الفاظ معينة لا يدلك بالضرورة على توجه الباحث او مفاهيمه السياسية. يمكن ان اقول «قادمين» او «مهاجرين»، وهو ما اكتبه حقا، فالاغلبية جاءت الى البلاد كلاجئين لم يكونوا صهيونيين بالذات.

● تكتب انهم جاؤوا الى بلاد متخلفة.. وكان عليهم اقامتها من هذا التخلف!

– كانت البلاد متخلفة الى ان جاء الانكليز. في اواخر العهد التركي بدت البلاد متخلفة وفقيرة جدا، وهي بلاد مات الناس فيها من الجوع. كانت غارقة في «سبات شرقي» بمفهوم الدمج بين ثقافة الشرق وثقافة اوروبا. لماذا توجد مشكلة في الاعتراف بذلك؟ لماذا ننكر مثلا ان جموعا غفيرة من العرب خرجت الى الشوارع لاستقبال الانكليز

كجيش تحرير؟ لماذا؟ لانهم اعتقدوا ان قدومهم قد يخرج البلاد من حالتها الرهيبة التي اوصلها الاتراك اليها. لم يحسن الاتراك معاملة الفلسطينيين، وقتلوا منهم الكثير. ماذا تريد مني، اذن؟ لماذا يجب ان تلجأ الى القوالب الجاهزة التي صنعها ادوارد سعيد، بحيث تشعر بالاهانة لسماع او قراءة شيء عن «الليڤانت»؟! يمكن ان نستخدم هذا المصطلح دون ان نُتهم بالعنصرية! بالمقابل، اذا كانت هذه هي الصورة المرتسمة من كتاباتي، فلعلني لم انجح بتوصيل الرسالة اليك! وبالمناسبة، انت لست اول من يلفت نظري لذلك! الحقيقة انني عندما كتبت عن «البلاد المستيقظة من السبات» فقد كان ذلك تشبيها مجازيا. هذه البلاد كانت متخلفة سنة ١٩١٧، وهي لم تستيقظ بسبب اليهود او البريطانيين، بل بسبب الاجانب الذين استقروا فيها: الروس والالمان والاميركان واليونانيون، كل طرف ترك وراءه انجازات كبيرة، واخذت البلاد تستيقظ بالتدريج. هذه حقيقة لا يجب ان تلحق اهانة بالفلسطينيين. يمكنك في اقصى حد ان تشعر بالاهانة باسم الامبراطورية العثمانية، لا باسم الفلسطينيين! يمكنك ان تزعل على حساب السلطان!

● انت لا تريدني بالفعل ان اعقب على ذلك! لنتركه لمحكمة التاريخ. عندي ما اهتم به الآن، ويشغلني، مثلا ان اعرف رأيك فيما يكتب عندكم عن «الثورة الصهيونية» المتواصلة منذ مائة عام، وكيف انها استنفدت غاياتها السياسية، واذا ما كانت بطبيعتها تتجنب رسم اهداف نهائية لها، وحدود ايضا.

– الصهيونية تبدأ الآن فقط بالتوصل الى غاياتها السياسية. وتلميحاتك حول «شهية التوسع» في الصهيونية بالحديث عن امتناعها عن رسم حدودها النهائية ليست دقيقة. هذا رأيي الشخصي، اما لو سألت اريئيل شارون لوجدت انه يعتقد اننا ما زلنا في حرب الاستقلال! اعتقد ان الصهيونية تملك اهدافا واضحة جدا، واننا نقترب من تحقيقها. خلاصة غاية الصهيونية هي الوجود الطبيعي لمعظم الشعب اليهودي في دولة مستقلة، مع تحفظ واحد مهم جدا، هو ان الطبيعية لن تتم بدون تسوية. طالما ان هناك صراعا عنيفا بيننا وبين الفلسطينيين، لن نتوصل الى هذه الطبيعية. لا يوجد مجتمع طبيعي يعيش حربا متواصلة. كل ما ذكرته آنفا يجعلنا نقترب من اهدافنا، فوجود هذه الدولة صار مضمونا، وخلال عقدين من الزمن ستتحول الى اكبر تجمع يهودي في العالم..

●.. هل بقي لدى الصهيونية شيء ترغب بتحققه، اذن؟

– الصهيونية الاصلية فضلت دائما الاغلبية اليهودية على المناطق

أيام شقائق النعمان – ارض اسرائيل في فترة الانتداب

الخالية. لذلك فان التجمعات الاستيطانية المعزولة مثلا لا تعكس الايديولوجيا الصهيونية الاصلية، بل تناقضها. الصهيونية لم تحتل البلاد بكاملها سنة ٤٨ لانها فضلت التركز ببناء غالبية يهودية في جزء من البلاد.

● «احتلال البلاد» هو قيمة مركزية في الصهيونية..

– كلا. القيمة المركزية هي الحفاظ على اغلبية يهودية بين السكان. الصهيونية تفضل السكان على البلاد، بصورة قاطعة تماما.

● كله تاريخ، كما تعلم، لذلك اسألك الآن: كيف تعمل الصهيونية في ظل العولمة؟

– لا اعرف اي دور لها الآن. الدولة الصهيونية بنظري هي قصة نجاح مثيرة للغاية. اعتقد انها تندمج في دائرة التأثير الاميركية، وتجد نفسها في حضنها. بهذا المفهوم قد تؤدي دورا في نطاق العولمة.

● تتحدث كثيرا عن النموذج الاميركي. الا ترى ان عملية خصخصة المجتمع والثقافة والدولة كما تجري الآن عندكم تعكس ابتعادا عن «الحلم الصهيوني» الذي تتحدثون عنه؟

– انها ابتعاد عن الصهيونية الاشتراكية فقط. الاشتراكية والصهيونية غير متشابهتين. صحيح ان حركة العمل قادت الصهيونية

توم سيغف

نحو النصر، لكن الصهيونية الاشتراكية ليست سوى تيار واحد في الصهيونية، ومنذ صعود بيغن للحكم سنة ١٩٧٧، هناك عملية ابتعاد عن النموذج الاشتراكي – الديموقراطي. لم تكن اسرائيل اشتراكية ابدا. وفي كل مرة حدث فيها صدام بين القيم الاشتراكية والقيم الصهيونية القومية، تم تفضيل القيم القومية عليها. مثلا، اغلقت الهستدروت (نقابة العمال العامة) ابوابها امام العرب، لان القومية كانت اهم من الاشتراكية. مع صعود بيغن للحكم تحولت وجهة اسرائيل نحو الاقتصاد الرأسمالي، وهو ما خلق هذه الفجوات العميقة جدا في المجتمع. هذا واحد من شرور النموذج الاميركي الذي نستهلكه لدينا.

● الخصخصة بهذه الروح، شرط اساسي مسبق لرأسمال منفلت..

– هناك حقيقة في ذلك. دائما اوحت الاشتراكية الديمقراطية بالتضامن او التكافل الاجتماعي. مع ذلك اعتقد ان الفردانية امر صحي جدا للمجتمع الاسرائيلي، لان ذلك يبعدنا عن الايديولوجيا الصهيونية القومية، ففي ذلك تشديد على اهمية الفرد، ما يجعلك بالضرورة ترفع وزن الفرد غير اليهودي داخل هذا المجتمع. هذا ما يحدث فعلا اليوم في هذا المجتمع الذي استوعب نصف مليون غير يهودي، ويعيش مع ربع مليون عامل اجنبي يعيشون في المحطة المركزية في تل ابيب. هؤلاء سيظلون هنا، ولن يعودوا الى افريقيا او شرق آسيا. ذلك يعني ان المجتمع يتغير، وهو يتعلم كيف يبتعد عن هذه الهيمنة الصهيونية القومية العبرية، التي وجهتنا منذ بداية الطريق. هذا التطور يجعلني متفائلا تماما بخصوص مستقبل العلاقات بين الاغلبية اليهودية في البلاد والاقلية العربية في اسرائيل. كلما تحررنا من هذا التسلط الايديولوجي الذي ميزنا في السنوات الاولى من وجودنا، كلما انفتحنا امام امكانية العيش في مجتمع متعدد الثقافات.

● نحن نتحدث بعد سبعة شهور تقريبا على اندلاع الانتفاضة الحالية، ومقاطعة الاغلبية العربية للانتخابات الحكومية التي اوصلت شارون لرئاسة الحكومة، وتعمق احساس الكثيرين هنا بانهم ليسوا جزءا من المجتمع الاسرائيلي الكبير.

– لا استطيع اثبات احاسيسي امامك الآن. لكنني احس اننا ازاء انحراف عن تطور متواصل الى الاتجاه المعاكس. اعتقد مع ذلك ان وجودا متعدد الثقافات نشأ في اسرائيل، وهو يسمح بقسط كبير جدا من المساواة للعرب. اذا قالت الاغلبية الساحقة من العرب في اسرائيل انها لا تنتمي لهذا المجتمع، سأقول عندها اننا امام مشكلة عويصة. لكنهم لا يقولون ذلك، بل اجد ان الهم الاساسي لهم هو الاندماج كمواطنين متساوي الحقوق في دولة اسرائيل. لذلك اقول ان هناك حاجة للابتعاد عن الاحداث والامتناع عن استخلاص العبر السلبية منها. الصعوبة تكمن في الفصل بين المزاج العام المتغير والاحداث، وبين دلالات هذا التطور الاساسي الاعمق في المجتمع. في «الصهيونيون الجدد» اقول ان التطور الاعمق في المجتمع الاسرائيلي هو في مسيرته نحو وضع «ما بعد صهيوني»، رغم انه يمر الآن بحرب مع الفلسطينيين، ويخيل لنا اننا نعود للوراء. نفس الامر بالنسبة للعرب. اعتقد ان في هذه الفسيفساء قطعا عربية كثيرة، وهي تشترك معا في بناء الصورة النهائية للمجتمع. يخيل لي ان هذا هو التطور الذي مضينا باتجاهه.

● كيف يمكنك قول ذلك والشرطة تطلق النار علينا؟

– لن اجادلك في ذلك. للاسف، هذا صحيح، وهو يثبت العكس مما اقول، ما دام رد فعل الجمهور العربي الامتناع عن المشاركة في الانتخابات. لكنني احس ان الامور على السطح تختلف عن التفاعلات الاعمق. من هنا هذا التفاؤل في حكايتي. وهو ما ابنيه من تأمل مسيرة المجتمعين مدة طويلة من الزمن. رغم الشرخ الظاهري بينهما، او في داخل كل منهما. وهو شرخ سياسي بماهيته.

● هناك ذريعتان في اساس الصهيونية تخلقان باعتقادي مثل هذه النتيجة: الحق المطلق على البلاد، مقابل الحق الانساني في تقرير المصير. خلق ذلك شرخا في المجتمع، عندما مضى كل من بقي مخلصا لجوهر النظرية الصهيونية «العاقلة» نحو المعسكر المعارض للاحتلال،

معظم ما كتب عن تاريخ الكارثة لم يكتبه المان بل يهود. ومؤكد انه ليس تاريخ منتصرين. كذلك الحال مع المؤرخين الجدد الذين يكتبون التاريخ اليوم، فهم لا يفعلون ذلك بهيئة المنتصرين. انهم اسرائيليون، ولكنهم يتعمقون في دراسة الاحداث. وهناك مؤرخون عرب يفعلون نفس الشيء، وقد قرأت مؤخرا لأحدهم كتابا نقديا عن دور القادة العرب في حرب ٤٨. فهل كان هذا المؤرخ يكتب تاريخ منتصرين ام خاسرين؟

اما من اعتبرها حقا مطلقا على البلاد، فقد وجد نفسه ضمن معسكر مؤيدي الاحتلال. هذه «ورطة» برأيي مستمرة حتى اليوم، ابرز تعبير عنها هو استمرار الاحتفاظ بشعب كامل، هو الشعب الفلسطيني، تحت الاحتلال. هل توافق على ذلك؟

– سيوافق الكثيرون على هذا الرأي. اما انا فأنظر للامور بشكل مختلف. في «الصهيونيون الجدد» اطرح نظرية مناقضة تماما لما تقول. حتى تشرين الأول ٢٠٠٠، كانت هناك اعداد غفيرة من الاسرائيليين ممن اعتقدوا ان الصهيونية تستهلك ذاتها، لذلك صار لديهم ما هو اهم من الايديولوجيا الصهيونية. لذلك وافقوا بهذه السهولة على التخلي عن جميع المدن الفلسطينية، وعندما تحدث باراك عن تقسيم القدس لم تقع السماء على الارض. لم يخرج الناس للشوارع احتجاجا. بل اخذوا يتجادلون فيما بينهم هل هو امر جيد ام لا. بالنسبة لك، قد لا يترك هذا العرض انطباعا، لاننا لم نعرض كل القدس على الفلسطينيين، بل تقسيمها واقتسام السيادة في «جبل البيت» الخ.. رغم ذلك كله، يجب ان تدرك الى أي حدّ كان هذا التحول مذهلا. تحدث امور كثيرة في هذه البلاد. هناك اجزاء واسعة من الاسرائيليين لا تهمها «وحدة القدس»، او لم تعد تقف برأس سلم اولوياتها. هذه احدى تجليات الحالة «الما بعد صهيونية»، وهي ليست ايديولوجية ابدا. لا توجد لدى الناس ايديولوجيا في تقسيم القدس، لكنهم لا يملكون ايضا ايديولوجيا تجعلهم يحتفظون باحتلال القدس. القدس لا تهمهم. يهمهم ان يسود السلام، لانهم لا يريدون الحرب. وهذه ليست ايديولوجيا على الاطلاق.

● هناك رأي يقول ان دراساتكم وابحاثكم تستجيب رغم تجديداتها وجرأتها في الطرح لرؤية ثقافية صاغت رواية مؤثرة تحتفظ بالماضي لاسرائيل وحدها – والقول لكنيث وايتلام في كتابه «اسكات التاريخ الفلسطيني» – وقد جئتم انتم لتجميل صورة هذه الثقافة التي انتجت مجمل الهستوريوغرافيا الصهيونية والصهيونية الجديدة كما تعرضها انت في كتابك. السؤال هو: الى اي مدى كان طرح الاسئلة اكثر من مجرد «طرح اكاديمي»، اي: بالتعبير عن توجه حقيقي لطرح الاسئلة المسكوت عنها في التاريخ الفلسطيني الاسرائيلي المشترك؟

– ما تقوله صحيح الى حدّ كبير. هذا سؤال عميق جدا، لكنني اخشى ان تتسبب اجابتي مجددا بخيبة امل لديك! المسألة لا تدور حول مجموعة ايديولوجية من الباحثين، بل ازاء عدد من الباحثين ابتسم لهم الحظ فتوصلوا الى قراءة مادة وثائقية لم يقرأها احد قبلهم، وعلى اساس هذه المواد رووا حكاية اخرى. القصة التي يرويها المؤرخون الجدد ليست قصة ايديولوجية. هي قصة تستند الى مادة جديدة. المادة هي ما غيّر القصة كلها. في كل الاحوال – هكذا كان الحال بالنسبة لي. عندما كتبت «الاسرائيليون الاوائل» كنت اعود الى البيت يوميا واتصل بالاصدقاء محاولا اشراكهم فيما اصابني من ذهول لما كشفت عنه من وثائق، في مختلف المجالات. لم يصدقوني اولا، فما رويته كان قصة مغايرة تماما. هذه امور مذهلة في هذا الارشيف. كنت اقول لهم انني عائد للتو من «سديه بوكير» (الكيبوتس الذي عاش فيه بن غوريون) بعد ان قرأت المزيد من يوميات بن غوريون. مذهل جدا ما كتبه هذا الرجل في يومياته!

● ذلك يذكّرني بشيء مماثل سمعته من بيني موريس، انه وصل مادته بطريق الخطأ! كان يبحث في تاريخ «الهلماح»، فتوصل الى مادته عن اللاجئين الفلسطينيين.

– اعرف ان في ذلك شيئا من خيبة الامل، وقد تنبهت منذ بداية حوارنا الى انك مشبع بالايديولوجيا. لكن قصة المؤرخين الجدد ليست كذلك. المشكلة ان كثيرين يشاركونك هذا المعتقد. انت لا

الصهيونيون الجدد

تتصور عدد الصحافيين والكتاب الاجانب من مختلف ارجاء العالم الذين قدموا للاستماع الى قصة المؤرخين الجدد. كانوا يخرجون من عندي الى بيني موريس وايلان پاپه وامنون راز كركوتسكين، ويعودون الى البيت، ثم يذهبون الى انيتا شپيرا (مؤرخة اسرائيلية) لكي تهاجمنا جميعا، ومن ثم يعودون الى بلدانهم، دون ان «اشفي غليلهم»، لانني حاولت ان اقول اننا لسنا ازاء تيار ثقافي شبيه بما كان في فرنسا مثلا، بل ببلاد تودّع اسرارها، وفي نفس الفرصة تودّع بالضرورة اساطيرها، لانها مؤسسة على غير الحقيقة. هذه الابحاث كتبت في صالح الحقائق التاريخية. نحن اليوم نعرف مثلا ان نصف اللاجئين العرب على الاقل من سنة ١٩٤٨ طردوا ولم يهربوا ولم يغادروا او يهاجروا، بل طردوا! نحن نعرف ذلك لاننا نملك الوثائق الخاصة بنا لا بكم، وهي مأخوذة من ارشيفات جيش الدفاع، ولا يمكن التشكيك بصدقيتها ابدا. طالما بقيت هذه الارشيفات مغلقة، كنا امام «الدعاية العربية» مقابل «الدعاية الصهيونية». كشف ارشيف الجيش عن حكاية لم تكن الدولة راغبة بها، فهل بامكانك ان تكذبها؟ الاستنتاج الوحيد هنا انهم كذبوا علينا، ولم يقف قادة الصهيونية في الموانىء متوسلين للعرب الا يذهبوا، بل طردوهم! في هذا السياق توصل بيني موريس الى استنتاج مثير برأيي، ان نصف اللاجئين لم يطردوا. بل غادروا. هربوا. وذلك منطقي. فذلك يحدث في الحروب! الكشف عن المادة خلق هذا التحول. يمكن ان ينشأ وضع في المستقبل تكشف فيه اسرار اسرائيل النووية ايضا. «لا توجد عندنا قنبلة ذرية»، هي غير موجودة. هكذا تقول اسرائيل الرسمية، ونحن لا نكشف عنها لاننا لا نملك الوثائق. هناك باحث يهودي يجلس في اميركا يدعى افنير كوهين، توصل الى شيء ما بهذا الصدد. لا بد ان يأتي يوم تفتح فيه وثائق مختلف الاجهزة الامنية والعسكرية، عندها يمكنك كتابة تاريخ هذه البلاد كما تكتب تاريخ بلدان اخرى. بالمقابل، آمل جدا ان يأتي يوم تفتح فيه الوثائق الفلسطينية، الموجودة جزئيا اليوم، لكن احدا لا يظهرها. ساعطيك مثالا: هناك وثائق موسى العلمي. اعتقد ان قسما منها في «بيت الشرق»، وقسما آخر في بيروت. لا احد يستطيع رؤيتها (جرت هذه المقابلة قبل احتلال الشرطة الاسرائيلية لبيت الشرق، ومصادرة جميع وثائقة واغلاقه لمدة نصف عام). المعلومات الواردة من هذا الاتجاه مأخوذة من الوكالة اليهودية. اجمالا، اعتقد انك مشدود بادعاء الاشخاص المعارضين للمؤرخين الجدد، وهو خطأ ترتكبه بنظري. انت تريد رؤيتهم كتيار ايديولوجي. تماما كما يفعل معارضوهم، مثل اهرون ميغد وغيره. هو يقول نفس الشيء. لذلك تجد نفسك في معسكر واحد مع ميغد، عندما تقولون انه تيار ايديولوجي غير صهيوني..

● المشكلة انني لم اقل ذلك ابدا، لا الآن ولا في أي مكان اخر. مع ذلك، تظل هناك دلالات اخلاقية لهذه التحولات البحثية.

– سأقول لك مرة اخرى ان الحقائق التي طالعتنا من الوثائق الجديدة لا تعزز الرواية الصهيونية، لذلك نكتب الحقيقة للقراء. بالمناسبة، نحن نخطىء احيانا. خذ قصة هذا الشخص المسكين تيدي كاتس من جامعة حيفا. انظر الى أي حدّ صرعته الايديولوجيا. اعتقد انه ابتكر مادته، ووضع على السن الناس اقوالا لم يقولوها. كانت لديه مبالغة في رواية قصة افراد لواء الكسندروني الذين قابلهم. قالوا له: لم تكن هناك مذبحة في الطنطورة! امكنه الا يصدقهم، لا ان يكتب العكس. هذا ما فعله بالنسبة لالكسندروني، لذلك فان بحثه يسيء الى المؤرخين الجدد! صدقني ان بحثنا ليس ايديولوجيا، بل وسيلة لمعرفة الاماكن والمراحل التي بنت فيها الصهيونية الاساطير لنفسها. واين كذبت، واين لم تكذب. العالم العربي ما زال بعيداً عن مثل هذه الحالات! يجب ان نتغير كلنا، لكي يتغير الافق من حولنا جميعا. وذلك يبدأ بالاعتراف بحقائق التاريخ، والاستفادة منها. من هنا نبدأ!